نعيم قداح، تجارة الرقيق عمل أوروبي مهد للاستعمار في إفريقيا، المعرفة، العدد 08، وزارة الثقافة والإرشاد القومي- دمشق (سوريا)، تشرين الأول 1962

تجارة الرقيق

عمل أوربي مهد للاستعمار في افريقيا (١)

بقلم : نعيم قداح

يرجع الاسترقاق إلى أقدم العصور ، وقد وجد عند جميع الشعوب القديمة التي تناولها التاريخ بالذكر . ونشأ الرق ، بالدرجة الأولى عن الحرب وما تجره من سيطرة القوي على الضعيف وتسخيره لخدمته ثم بيعه . وقد أدى كل ذلك إلى قيام تجارة مستقلة هي تجارة العبيد .

وكان هناك إبان العصور القديمة والوسطى في كل مدينة من العالم (٢) ،

(١) انظر في هذا البحث المصادر التالية : A. Dcoqs . Histoire de L' A. N. Precoloniale ; H. de l' A. O. F. : Borry et Jaunet ; Roux : A'islam enoccident Histoire de L' Afrique : Suret - canale ; H. de L' A.

(٢) اشتهرت بعض المدن الاوربية على أنها مراكز لهذه التجارة القذرة ، كالمدن الساحلية البرتغالية . A. Julien والاسبانية وكذلك البندقية في ايطاليا وليون وفردان في فرنسا وقد اشتهرت الإخيرة بتجارة العبيد الخصيان . كما كانت سهول روسيا الجنوبية مركزا ضخماً لتصدير الرقيق الابيض .

تجار تخصصوا في بيع هذا الصنف ، لهم أسواقهم ومواسمهم . أما العبيد فـــكانوا يشكلون في المجتمعات القديمة ، طبقات خاصة لها مميزاتها ، وقد سنت لهـا عقوبات أشد قسوة من تلك التي كانت تطبق على فئة الأحرار ، وإزاء التعسف الاجتماعي الذي عانتـه هذه الطبقة المستضعفة ، برز عدد من المصلحين والمفكرين اليونان والرومان ، من الذين نادوا بتحرير الرقيق أو بالتخفيف من قيود العبودية باعطاء العبد بعض الحرية ليشعر بانسانيته

ومن جهة أخرى حاولت الديانات السماوية تضييق نطـاق الرق وتسهيل اعتاقه إلا أن نجاحها كان محدوداً ، ويعود السبب في ذلك إلى اعتياد السكان على تجارة الرقيق ، وإلى بقاء مبرراته الاجتماعية والاقتصادية ، وإلى تسامح اليهوديةفي ابقائه ودعوتها له . **وكانت الكنيسة في بعض تصرفاتهـا القديمة تقر العبودية في أول الأمر ، ثم عمدت إلى تضييق نطاقها ، في سياق حملتها لمقاومة البذخ والترف المتمثلين في كثرة العبيد، خلال العصور الأولى من القرون الوسطى ومع هـذا فقد كانت غزوات المسيحيين الرومان والبيزنطيين مصدراً ثراً للرقيق من أسرى البرابرة السلاف والجرمان الذين أصبحوا أيدي عامـــلة لايستغنى عنها، على أن المسيحية قد حرمت على أتباعها أن يستعبدوا إخوانهم في الدين في كثير من المناسبات .**

أما الاسلام فانه شجب الرق أصـــلاً ، كما يتبين في كثير من النصوص القرآنية والحديثية ، وعمل على ايجاد الوسائل المختلفة الفعالة للقضاء عليه. والرقيق عند المسلمين ، يتحول بالتدريج الى افراد يعيشون متساوين بين ابناء الاسرة التي تربوا فيها ثم يتحررون ويتزاوجون من البيئة التي عايشوا فيها اسيادهم السـابقين وكثير منهم يتعلم فنون الحرب ويتقن اعمال الادارة ، فيتربع في مناصب حكومية

هامة ، كما هو الحال في كثير من مراحل التاريخ العباسي المتأخرة وكذلك الحال عند المماليك الذين كانوا تابعين للأيوبيين .

وفي هذا الصدد يطيب لكثير من المؤرخين الاستعماريين الذين بحثوا في تاريخ افريقيا أن ينسبوا عار تجارة الرقيق الاسود الى العرب المسلمين ، ليشوهوا بذلك الصلة الحضارية الايجابية التي كانت تربط العرب بافريقيا . على ان بعض المنصفين المحايدين قد انكروا ذلك على الرغم من وجود قلة من الوكلاء العرب الذين عملوا لحساب التجار البرتغاليين ، فلم يعمموا استنتاجاتهم اعتماداً على حوادث فردية قليلة متفرقة(١) .

وقد تطور مفهوم الرق نتيجة لتطور الاقتصاد الاوربي من الاقطاعية الزراعية الى نمو الصناعة المستمر ، وبالتالي الى رواج عظيم في التجارة والى ايجاد الاسواق للبضائع المصنوعة . وقد ادت المحاولات الاوربية لتصريف السلع ولاكتشاف طريق الهند **بغية ضرب التجارة العربية** بعد هزيمة الصليبيين الى اكتشاف امريكا القارة البكر ، والى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح . ولقد حول المستعمرون في امريكا ، الهنود الحمر الى عبيد يقومون بالاعمال الزراعية في الاراضي الخصبة الشاسعة وقتل الاوربيون بعد ذلك عدداً كبيراً من هؤلاء الهنود وهم يدافعون عن أراضيهم ، بينما هلك عدد كبير منهم في الاعمال المنجمية المرهقة التي لم يعتادوا عليها . فاصبحت المشكلة الملحة تتلخص في السؤال التالي : أين يجد الاوربيون اليد العاملة لسد حاجاتهم المتزايدة ؟ فكان لا بد من ايجاد مصادر جديدة للرق ولا بد من نقله الى المراكز الاستهلاكية في امريكا ، وقد وجد الاوربيون ضالتهم على سواحل افريقيا . ويقول المؤرخ الفرنسي كاثال : ان

---

(١) Conole : H. de L' Afrcque

شعوب افريقيا السوداء هي التي دفعت ضريبة جنون حب المال عند الاوربيين(١)

ويقول الشاعر الفرنسي المعروف برناردان دوسان بيير Bernardin de saint pierre الذي قام بجولة في مستعمرات فرنسا الكاريبيه : انني لا ادري فيما اذا كانت القهوة والسكر عنصرين ضروريين لسعادة أوربا ، ولكنني أعتقد أن هذين النباتين قد جلبا التعاسة للهنود والافريقيين . فلقد أفنى المستعمرون الأوربيون شعب البلاد الامريكية لاستملاك الأرض الزراعية ثم اقتلعوا الافريقيين من بلادهم ليصبحوا رقيقاً في زراعة الأرض .

ولقد كانت افريقيا الغربية حتى القرن السادس عشر تتبع طريقها الخاص في التطور الحضاري وكان اتصالها الوحيد بالعالم المتحضر محصوراً بعرب شمال افريقيا ، الذين كان لهم تأثير شديد على الحضارة السودانية وكان يمكن لهذه الحضارة أن تتلقى رفداً عظيماً من صلتها بأوربا ، لو لم يقلب لها الأوربيون ظهر المجن ، فيحققون أسوأ عمل سلبي في التاريخ ألا وهو ممارستهم لتجارة الرقيق الافريقي.

ويقول المؤرخ جوليان (٢) :

ان البرتغاليين قد قاموا باكتسابانهم بعد الحروب الصليبية بدافع انتقامي من التفوق الاسلامي وبدافع استعماري اقتصادي لايجاد المستعمرات التي هيئت لتكون مراكز للمواصلات لضرب التجارة العربية في افريقيا الشرقية والهند . لذا فهم أول من روج هذه التجارة في القرن السادس عشر وقد احتكرها البرتغاليون مدة ليست قصيرة . ثم لحق بهم الاسبان والهولنديون في القرن السابع عشر وجاء بعد ذلك الفرنسيون والانكليز في القرن الثامن عشر . ولقد كانت مناطق تجارة الرقيق الافريقي تمتد على سواحل افريقيا الغربية من موريتانيا حتى الكونغو على ساحل يزيد طوله عن ٥٠٠٠ كم .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) Hstoiré de L' Arrique

ولقد ساهمت معظم الدول الاوربية في غزو افريقيا والمتاجرة بشبابها لأن المستعمرين في أمريكا وجدوا أن الأفريقيين يستطيعون أن يعملوا بدلا من الهنود الهالكين بسبب تشابه المناخ بين المناطق الاستوائية في امريكا وبين المناخ في افريقيا السوداء .

في عام ١٥١٧ سمح شارل الخامس لرعاياه الفلمنكيين باحتكار تجارة الرق على سواحل افريقيا الغربية بمعدل ٤٠٠٠ عبد في العام . وفي عام ١٦٩٠ **اعتبرت بريطانيا تجارة الرق عملا شرعياً**، فنقل الانكليز الى أمريكا خلال القرن الثامن عشر نحو ٣٨٠٠٠٠ افريقي بينما نقل الفرنسيون في القرن ذاته ٢٠٠٠٠٠ والبرتغاليون والهولنديون ١٤٠٠٠٠ .

وقد عمل في نقل هذه الكتل البشرية الهائلة أسطول ضخم مؤلف من ثمانية آلاف مركب (١) وذكر كانال أنه دخل الى جزيرة هايتي (من أهم مراكز تجميع العبيد) منذ عام ١٦٨٠ أكثر من ٨٠٠٠٠٠ زنجي بينما لم يكن فيها عام ١٧٧٦ إلا نحو ٢٩٠٠٠٠ ، وكان أغلبهم يموت خلال السنين الأولى من شدة العمل المرهق ، وقد يستمر العمر ببعض الأفراد مدة أطول إذا كانوا فتياناً يافعين عند قدومهم ، وقد أدخل الاسبان الرق إلى تلك الجزيرة لأول مرة عام ١٥٠٢ وليس هناك أرقام صحيحة عن عدد المنقولين خلال القرون الأربعة التي استمرت فيها هذه التجارة المقوتة ، فمن قائل إن هذه الأرقام تصل إلى عشرين مليوناً ، ويرفعها البعض إلى ثمانين وإلى مائة وخمسين ، ومن الثابت أن عدد المنقولين كبير جداً إذا ماقورن عدد الذين كانوا يعيشون هناك وعدد المقلعين من سواحل افريقيا وعدد الذين ماتوا اثناء العمل . (٢) .

ومن الطبيعي أن قسماً كبيراً من الرقيق يلاقي حتفه قبل وصوله إلى أمريكا بسبب الظروف السيئة التي يتعرض لها خلال نقله . وقد قدر البعض عدد

---

(١) و (٢) الاحصاءات من Roux و Covle

المفقودين بنسبة أربعة أخماس المجموع : **اي ان عبدا واحداً يصل الى امريكا يموت في مقابلة أربعة في الطريق ، ومنهم من يهلك اثناء القنص في داخل القارة .** وآخرون يدركهم الموت من التعب والأمراض في سيرهم الطويل من داخل القارة نحو الساحل وهنـــاك يحشر من تبقى منهم في مستودعات ضخمة ثم ينقلون إلى المراكب الخالية من الظروف الصحية فينتحر قسم منهم في البحر غرقاً .

ولم يكتف التجار الأوربيون بما يحمـــله عملاؤهم من الرقيق ، بل إنهم تسربوا إلى داخل القارة ليحصلوا بأنفسهم على قطع الذهب كما يقولون ، وما قطع الذهب إلا الشباب الافريقي ..وتدوم مطاردة قطعان الرقيق ستة أشهر يموت خلالها عدد كبير !!!

وقد أصبح هؤلاء التجار رواداً للاستعمار فيما بعد ، على أن ما كان يقدمه الأوربيون في مقابل ذلك القتل البشري كلـــه ، بعض عقود الخرز والبودره والمشروبات الروحية لمن كان يساعدهم من العملاء (١)

أما طريقة البيع (٢) فتتلخص في ايصال الزنوج إلى الساحل ، ويتفحص التاجر الشحنة القادمة فيستثني منها العناصر الضعيفة المستهلكة كالمرضى أو الشيوخ أو النساء أو الأطفال الصغار وإذا أصر الأب والأم على اصطحاب طفلهـــما يقتله التاجر الأوربي ـ إذا كان عمره أقل من ثلاث سنوات ـ لئلا يكون عبئـــاً على البحارة في المركب وعندما يصعد الذكور من الرقيق إلى سطح الباخرة يقيدون هناك بالحديد لئلا يقذفوا بأنفسهم في البحر بينما تبقى النساء طليقات ومحشورات في أمكنة ضيقة .

وقد جرت العادة أن تملأ الباخرة بأكبر عدد ممكن من هذه البضاعة .

---

(١) المصدر ذاته .
(٢) تاريخ . H. de L' A. O E.

وبما أن الزنوج كانوا عراة فانهم يهلكون من البرد عندما يتغير المناخ ، ويتناول الرقيق جراية بسيطة من حساء الذرة البيضاء ، وعندما تصل الباخرة إلى مراكز التوزيع في جزر الانتيل يسجن الافريقيون في أماكن ضيقة انتظاراً لمن يدفع الثمن الأحسن وقد تدوم عملية السفر والانتظار أكثر من عام .

ويتساءل كثيرون : كيف لم يستطع الزنوج التكاثر لحفظ النوع ؟ الجواب على ذلك أن الغذاء السيء وقسوة العمل الذي فرض على النساء الحاملات وكثرة الأمراض المتفشية بين الشباب ، كل ذلك عوامل أدت إلى هلاك الرقيق.

ويقدر أحد المؤلفين عدد الذين يموتون سنوياً في جزيرة هايتي بثلاثين ألفاً وقد ذكر على لسان أحد التجار قوله : إننا نرهق العبيد بالعمل القاسي ولا نبالي بهلاكهم تعباً إذا كنا نحصل من وراء ذلك على ربح يعادل أثمانهم (١)

في هذه الظروف المادية التعسفية التي كان يعيش فيها الرقيق ، وجدت ظروف أخرى نفسية تتعلق بالتصرفات الوحشية التي قام بها القراصنة نحو النساء الافريقيات أو بالمحاولات المتعددة المصحوبة بالارهاب لتنصير المسلم من الرقيق ، وقد دلت الأبحاث على أن العائدين من أمريكا إلى افريقيا قد احتفظوا بأسمائهم الاسلامية القديمة وهي ما تبقى لديهم من حياة أجدادهم السابقة في افريقيا (٢)

الغاء الرق : يحق لنا ، بعد مامر بنا ، أن نعجب من الغربيين إزاء هذه الاعمال التي تتنافى والروح الانسانية التي بشر بها المسيح ، ومن المدهش ألا نجد من **الكنيسة** أي استنكار في بادىء الأمر (٣) بسبب الخدمات التي يؤديها الأرقاء

---

(١) تاريخ Canale

(٢) يسمى العائدون الى افريقيا بعد تحررهم خلال القرن التاسع باسم الناغوس Nagos انظر في ذلك تاريخ Roux

(٣) تاريخ Canale

في أعمالهم بأوقافها . كما ان العقلية السائدة قبل القرن الثامن عشر كانت تتقبل فكرة الرقيق . إلا ان الحملات الشديدة على العبودية قد بدأت باستيقاظ بعض الضمائر في أوروبا في اواخر القرن الثامن عشر من امثال الفلاسفة توماس كلاركسون T. clarkson وويليام ويلبيرفورس W. wilberforce (١٧٥٩–١٨٣٣) الانكليزيين

وقد استنكرت الثورة الفرنسية الرق عام ١٧٩٣ ثم أعاد نابليون العمل به ومنعته بعد ذلك الجمهورية الثانية عام ١٨٤٨ ، بيد ان الفرنسين الذين يذهبون الى المستعمرات مغامرين أو فاتحين قد عملوا بالرق خلافاً لرأي القانون [١] .

وقد ظهرت في عام ١٨٥٢ رواية كوخ العم توم للكاتبة الأمريكية هاريت ستاو صورت فيها بعض نواحي الحياة القاسية الدامية التي يعيش فيها الزنوج ، فأحدثت أثراً في تحرير الزنوج في الولايات المتحدة ، وشرع الزنوج بالعودة الى افريقيا وليبريا بوجه خاص ، الا أن المزارعين في جنوب الولايات المتحدة قد تمسكوا بهم ليعملوا في حقول القطن والتبغ والقصب ، ولهذا لم يكن لتحرير لنكولن للزنوج عام ١٨٦٢ إلا أثر ضئيل في العودة الى افريقيا .

ويعيش الآن كثير من الزنوج والمولدين Matisses في البحر الكاريبي (جزر الأنتيل) وهم يعانون من عسف المستعمر ، بينما ألف بقايا الزنوج في البرازيل والأرجنتين والشيلي والبيرو حياتهم منذ إلغاء الرقيق في تلك البلاد بين عامي ١٨٥٤ – ١٨٨٩ [٢] على أن اضمحلال هذه التجارة الشنيعة لا يعود الى يقظة الضمير الانساني فحسب ، وإنما الى التطورات الجديدة التي طرأت على الاقتصاد والسياسة فقد ازداد رقي الصناعة المعتمدة على الآلة اعتماداً يكاد يكون كلياً ، وادى ذلك الى انقطاع سيل الرق في العمل الصناعي كما أن مصلحة الاستعمار الاوربي بعد

---

(١) تاريخ Canab

(٢) الاسلام في الغرب لرو Le Roux

أقتسام القارة السوداء ، قد اقتضت أن يوقف الأوربيون تجارة الرقيق لاستغلال المستعمرات انفع استغلال على يد ابنائها الأصليين .

وكان انبثاق فكرة الاستقلال الامريكي عن بريطانيا سبباً في منع الاخيرة لتصدير الرقيق الى الولايات المتحدة لتثأر من استقلال هذه الدولة الامريكية الفتية ولتحطم اقتصادها الوليد .

وان الحياة المظلمة التي يقاسيها اكثر من خمسة عشر مليوناً من الزنوج في امريكا الشمالية والاضطهاد العنصري الذي يلاقيه عشرة ملايين افريقي في اتحاد جنوب افريقيا والحياة المميتة والسخرة الاجبارية التي يفرضها البرتغاليون على سكان انغولا وغينيا ، كل ذلك ، يعيد الى الاذهان صورة المأساة التي تحملها أجداد الافريقيين القدماء ، ولا يزالون ، هم يضرسون بها .

أثر الرقيق في افريقيا :

لقد استهدف الاوربيون من تجارة الرقيق خلال أربعة قرون ، قتل القوة الفعالة في افريقيا بنقل شبانها الى المستعمرات في امريكا وغيرها . وأدى ذلك بعد قليل ، الى تدهور صرح كل تقدم أو تطور في تلك الاصقاع . فقد اصبح الافريقي سلعة تتسرب الى الخارج ومن ثم فقد اصبح النقص المتواصل في القوى البشرية الفتية الميزة الاولى لافريقيا ، الى جانب الانحطاط السياسي ، مما سهل على الاوربيين احتلال البلاد الشاسعة المقفرة من السكان . وقد اضطر الافريقيون في حالات كثيرة الى ترك مواطنهم ، أمام مطاردة الصيادين البيض والوكلاء الوطنيين . في البدء كان اسرى الحرب الاهلية الطاحنة بين الدول الافريقية يباعون في مقابل الاسلحة النارية والبضائع الكمالية . وبعد مدة وجيزة ، وامام الطلب الاوربي المتفاقم ، أصبح من الضروري ان يستعمل الافريقي الاسلحة النارية من اجل الحصول على هذه البضاعة البشرية الثمينة ، وهكذا أصبحت

تجارة الرقيق دافعاً للحرب التي شنها الافريقيون على إخوانهم بينما كانت الغزوات الاستعمارية تنهش أطراف البلاد .

ومن هذا نرى الافريقي يبيع أخاه ليشتري به اسلحة أوربية وليوسع رحلات القنص ونرى أيضاً أنه قد فرض على الباقين من اهل افريقيا ان يعيشوا في توتر نفسي رهيب ، فأهملوا ارضهم وصناعاتهم وفرض عليهم مصير من ثلاثة : الموت أو العبودية والبيع أو النصر المحفوف بالخطر . **وكانت نتيجة هذا العمل الاوربي الهدام أن بقيت افريقيا طيلة قرون متخلفة متحجرة ، تحت رحمة الحروب الدائمة والهلع ، والمجاعات الرهيبة والعبودية الماحقة . إنها وسائل الدمار التي ابتدعها الاوربيون للسيطرة على افريقيا الفتية .**

